«صلّوا كما رأيتموني أصلّي» رسول الله صلى الله عليه وآله

للصلاة صورتها وأفعالها الظاهريّة، إلاّ أنّ لحقيقتها وباطنها الحظ الأوفى. قد نصلّي فتدعو لنا صلاتنا وتوصلنا إلى مَنْ أمَرَ بها. وفي حال التهاون، قد تدعو علينا ولا تزيدنا من الله إلاّ بُعداً.

في كتابه (علامات أهل السرّ) يعرض العارف الكامل الشيخ حسن عليّ الأصفهاني لحقيقة الصلاة، وكيفية التدرّج في مقاماتها، وأثرها على العبد. ما يلي مقتطفات من هذا الكتاب القيّم، بتصرّف يسير.

لماذا نصلّي؟

الهدف من الصلاة هو حضور القلب، والاستغراق الكامل، وفناء ذات العابد بالمعبود، والفوز بمشاهدة الحق. لكنّ المبتدئ يحتاج للوصول إلى هذا المقام إلى رياضة كثيرة ومجاهداتٍ لا تُحصى، وما لم يشتغل المرء بأمر القلب مدّة، فلن يصبح فارساً في هذا الميدان. إنّ حقيقة وروح وقلب الصلاة هو التضرّع لله عزّ وجلّ، والمناجاة مع ربّ الأرباب، والرّكوع والسجود والتشهّد والتكبير والتسليم والأذكار صورة الصلاة الظاهرية، ولهذا السبب قالوا إنّه إنّما يُقبل من الصلاة المقدار الّذي يكون القلب متوجّهاً للمعاني حين التكلّم. وفي الحقيقة، فإنّ الصلاة التي ينطق بها اللّسان والقلب متوجّه أثناء ذلك لأمرٍ آخر، ليست بصلاة.

الارتقاء في أداء الصلاة:

إعلم أيها العزيز أنّ ما هو محلّ حاجة للإنسان صورة نازلة فيها أقل ما يقنع بشكل يتأدّى بها أمر الإنسان، ومن ثمّ تترقّى شيئاً فشيئاً إلى أن تصل إلى درجة فوق الفوق. مثلاً، الإنسان يحتاج إلى منزل ليحفظ نفسه من الحرّ والبرد يكون مثل منازل الفلاحين، ومن ثمّ يترقّى إلى أن يصل إلى منازل الأعيان والأشراف كمثل العمارات والحدائق. والصلاة أيضاً إفرضها بهذا النحو، فمرتبتها النازلة هي بالنحو الذي يقولون عن الشخص إنّه مسلم وبدنه طاهر ويصلّي. ثمّ تترقّى هذه الصلاة إلى أن تصل إلى مرتبة لا يسمح المصلّي فيها بورود وخيالات الدّنيا أبداً، والأرقى من ذلك هو أن لا يبقى عنده طريق لتخيّل أيّ شيء وحتّى تخيّل الآخرة، ويكون كل توجّهه معطوفاً للتضرّع والالتجاء إلى ربّ الأرباب. عندها تحصل أسرار الصلاة، حيث تحصل ستة أشياء:

الأول: حضور القلب، أي أنّ القلب أثناء الصلاة لا يتعلّق بغير الله جلّت عظمته.

الثاني: فهم معاني القراءة والذكر والتسبيح في الصلاة بشكل يكون القلب مطابقاً للّسان في فهم تلك الألفاظ.

الثالث: التعظيم، أي أن تكون عظمة المعبود ومبدأ المقصود في خاطره في تلك الحالة.

الرابع: الهيبة، أي أن يهجم الخوف على قلبه من غاية عظمة الله، لئلاّ يكون في عبادته تقصير.

الخامس: الرجاء، بأن يكون مقام كرم وجود الله أكرم الأكرمين معلوماً له، وأنّه لن يحرمه من نهاية مرحمته، وسيعفو عن ذنوبه.

السادس: الحياء، بأن يرى نفسه وعبادته أصغر من أن تليق ببابه، ويأتي بعبادته بمنتهى الحياء والذلّة والإنحناء.

بماذا نستعين لنترقّى؟

ورد في الحديث: «**إنّ الصلاة إذا ارتفعت في وقتها رجعت إلى صاحبها وهي بيضاء مشرقة وتقول: حفظتني حفظك الله، وإذا ارتفعت في غير وقتها وبغير حدودها رجعت إلى صاحبها وهي سوداء مظلمة تقول: ضيّعتني ضيّعك الله**».

وورد في رواية الإمام الصادق عليه السلام قال: «**قال الله عزّ وجلّ في بعض ما أوحي: إنّما أتقبل الصلاة ممّن يتواضع لعظمتي، ويكفّ نفسه عن الشهوات من أجلي، ويقطع نهاره بذكري، ولا يتعظّم على خلقي، ويطعم الجائع ويكسو العاري ويرحم المصاب ويواسي الغريب، فذلك يشرق نوره مثل الشمس، أجعل له في الظلمة نوراً، وفي الجهالة علماً، أكلاؤه بعزّتي وأستحفظه ملائكتي، يدعوني فألبّيه، ويسألني فأعطيه، فَمَثل ذلك العبد عندي كمثل جنّات الفردوس، لا يسبق أثمارها ولا يتغيّر عن حاله**».

ومن المستحسن قبل الشروع في الصلاة أن يقرأ هذا الدعاء: «**ربِّ أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك ربِّ أن يحضرون. ربِّ أسألك حولاً من حولِك، وقوّةً من قوّتك، وتأييداً من تأييدك، حتّى لا أرى غيرك ولا أشاهد سواك**».

يا أيّها العزيز

﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يوسف: ٨٨،

يجب أن يكون لسان الحال مترنّماً بهذا المقال.

«منّي ما يليق بلؤمي ومنك ما يليق بكرمك»، لقد أتيتُ بما في وسعي وقوّتي، إذا أعنتني وساعدتني أستطيع الوصول إلى أعلى عليّين، وإلاّ فسأكون محبوساً في أسفل سافلين، تصدّق علينا، إذ لا نستحق شيئاً.

أيّها العزيز، عليك أن تسعى ليلاً ونهاراً لعلّك تشرب من مَعين العبادة جرعة.